صقيع الصالة مع صاحب الشقة . . كما تقضى أصول الضيافة . . والجميع ينامون في صفوف متراصة كأننا في عنبر المساجين . . وكلما جاءنا زائر جديد واصلنا التحرك كما تدفع الموجة الجديدة الأمواج القديمة أمامها إلى الشاطئ حتى كاد الزحف في بعض الأوقات يطردنا أكثر من مرة إلى الردهة الصغيرة خارج الشقة . . وكل ذلك في عز الشتاء ، وليس في شهور الصيف ، وبعض ضيوف الضيوف لم يتورعوا عن استضافة بعض أصدقائهم المجهولين لي ولأصدقائي تماما حتى أصبحنا غرباء بينهم . . وأصدقاء الاسكندرية الذين فارقتهم بجامعة القاهرة . . يأتون لزيارتي من حين لآخر في رحلات منتظمة ، وأرد أنا لهم الزيارة في مواعيد محددة كأننا من رؤساء الدول . . وفي زياراتي المتكررة لأصدقاء الاسكندرية في فصل الشتاء نمت بذرة الروماتيزم التي استقرت في عظامي من النوم في عنبر المساجين بشقتي الصغيرة وترعرعت . فقد كان لا يحلو لنا حديث إلا على كورنيش البحر حتى الفجر وعواصف الشتاء تكاد تقتلعنا من الأرض اقتلاعا ولم يكن كورنيش الاسكندرية وحده هو المسئول عن آلامي الروماتيزمية القديمة فكورنيش النيل أيضًا له باع كبير في تأكيدها وترسيخها ، فلقد كانت شقتي قريبة منه . . وكان مكان لقائنا المختار في كازينو صغير تحت كوبرى الجامعة كنت اتردد عليه كل يوم تقريبا ومن طول العشرة وكثرة التردد أصبح الجرسون يغلق البوفيه في الثانية صباحا ويتقاضى حسابه ثم يتركنا مع الخفير لحراسة الموائد والمقاعد في عز البرد ! وفي إحدى ليالي ديسمبر التي قالت الصحف في اليوم التالي انه لم يمر على مصر برد مثل بردها منذ ثلاثين عاما أصر أحد أصدقائي وكنا قد تخرجنا وعملنا منذ سنوات على ان يصلبني أمامه على كورنيش النيل حتى الفجر وهو يروى لي متأثرا ومنفعلا قصة حب العمر في حياته فكتمت آلامي الروماتيزمية احتراما لآلامه العاطفية . وبسبب هذا الصديق بالذات كدت أصاب مرة اخرى لا بالروماتيزم وانما بقرحة المعدة أيضا . فلأنني ممن يعتبرون الصداقة الحقيقية قيمة ثمينة في الحياة فاني لا أسافر إلى دولة ما في عمل إلا وأتحايل لأضع المدن التي رحل اليها بعض اصدقائي

على خط سير الرحلة لأنتهز الفرصة وازورهـم فيها بلا هدف سوى الالتقاء بهم . وفى احدى زياراتى لألمانيا منذ سنـوات . . انهيت عملى فى فرنكفورت ثم سافرت فى رحلة طـويلة إلى هـامبورج خصيصـا لأزور صديقـا مقيما هناك منـذ سنوات ، فوصلت للمدينة فى منتصف الليل وطلبـت من سائق سيارة الأجرة ان يحملنى إلى أى فندق صغير فى وسط المدينـة . . وصدمت بعـد وصولى اليـه بأن مطعمه مغلق وليس هنـاك محل أو مطعم قـريب استطيع تنـاول عشـائى فيـه . . فبت ليلتى على الطوى وفى الصباح جاء الافطار فوجدته من السجق الألمانى الشهير وليس عندهم غيره فرفضت اكله لأنه من لحم الخنزير واحتسيت كوب الشاى واسرعت فى سيارة اجرة إلى عنوان صديقى فى الثامنة صبـاحا واردت ان افاجئه بحضورى فلم اصرح له بـاسمى حين خاطبتـه من تليفون البـاب وانما قلت له صـديق من مصر ، ففتح البـاب مـرحبـا دون أن يعـرف شخص زائره . . وصعـدت السلم اليـه فى الـدور الخامس وأنـا ألهث من التعب فما ان تعـرّف على حتـى قـابلنى بمظـاهـرة وقـادنى مبتهجا الى غـرفة المعيشـة وهو لا يكف عن الكـلام والترحيب والسؤال عن مصر والأصدقـاء . . وبعد قليل وضع أمـامى براد الشـاى ثم جلس على الارض ليتيح لـرئتيـه افضل وضع للكـلام وهـو من فـرسـانـه ثم راح يتكلم بـلا تـوقف لعـدة ساعات . . ويسألنى فأجيب . . ويسترجع ذكريات زمان والروماتيزم الذى أهداه لى فى مصر . ثم تنبهت فجأة إلى آلام شديدة فى معدتى فتذكرت مشكلتى معها وهى ان عصارتها الحمضية زائدة على الطبيعي فاذا خلت نهائيا من الطعام سببت لى آلاما فظيعة فان لم ابادر بتناول شىء يسير من الطعام ولـو باكو من البسكويت توحشت العصارة وبـدأت تنهش جدران المعدة وتهددهـا بالقرحة ، وهـذا هو سر الاغماءة الخفيفة التى أشكو منها كل ليلة فى رمضان عقب الافطار . وبسببها فانى لست من هواة الطعام لكنى احتاج فقط إلى كسرة خبز أو باكو من البسكويت كل ساعتين أو ثلاثة وربما اكتفيت بهما عن أى طعام آخر طوال اليوم ـ أما غرامى الحقيقي فبالشاى أولا ثم القهـوة ، لكن صديقى غـارق فى حديث الـذكريـات وقد أنستـه سنوات

الغربة الطويلة مشكلتى مع الوحش الـذى ينهشنى وتنبهت فاذا بالساعة قد تعدّت الثـانيـة بعـد الظهـر ، وآلامى قـد أصبحـت فـوق الاحتمال ، فـاستأذنت منـه فى الانصراف إلى فنـدقى على أن أعـود اليـه فى المسـاء لكن هيهـات ان يسمح لى ، وخجلت ان أصرح لـه بالسبب الحقيقي لـرغبتى فى الانصراف لأن اليوم كـان يوم سبت وهو يقيم مع سيده ألمانية عجوز فى نفس الشقة وكل شىء عندهم بالحساب وربما كانـا قد أعدا مـا يحتاجانه من طعـام خلال عطلة نهايـة الاسبوع بما لا يسمح باستضافة زائر غير متوقع مثلى ، فتحاملت على نفسى على امل ان يرتوى صديقى من حديث الذكـريات ويسمح لى بالانصراف فمضت ساعة اخـرى تحولت بعدها الآلام الى خناجر مسمومة تطعننى فى جدران معدتى بلا رحمة فأعدت عليه رجائي فلم يلتفت اليـه وواصل الكـلام ! . . ثم اصبحت السـاعـة الـرابعـة والخنـاجـر أصبحت مناشير يضاعف من حدتها احتساء الشاى والقهوة والتدخين ، وصديقى غائب مع الذكريات فتوسلت اليه ان يأذن لى بالانصراف فلم يقبل ، فكدت أولول باكيا بين يديه طالبا العفو والسماح والاذن بساعة واحدة اغيبها عنه . . ولكن كيف يحدث ذلك والحديث ذو شجـون والـذكريـات صـدى السنين الحاكى ـ كما يقـول الشاعر ـ فما ان بلغت الساعة الخامسة مساء حتى تذكرت فجأة ان الضرورات تبيح المحظورات وان الـدفاع عن النفس يبيح القتـل ، واننى فى حالة دفـاع شرعى عن نفسى ضد وحش ينشر جدران معدتى بسنونه الحادة فنهضت مستجمعا كل حزمى وارادتى واعلنت بلهجة صـارمة لا تسمح بأى تـراجع اننى لا بد ان اغـادر المكان الآن وفورا لأتصل بجريدتى تليفونيا لابلاغها بخبر هام حتى لا أتعرض للمساءلة وسوف اعود اليه بعد الاتصال مباشرة لأن تليفونه ليس دوليا ثم هرولت الى الباب ، وهـو يهرول ورائى ورائى مـؤكدا على ضرورة العـودة سريعـا ، وهبطت السلم قفزاً وهـو يطل على من «الدرابزين» مكـررا تأكيداتـه وانطلقت إلى أقرب مطعم ، واسكتُّ الـوحش الـذى بـداخلى ، وبعـد أن التقطت أنفـاسى ، واسترخيت . . تذكرت أن صديقى هـذا هو الوحيد من بين كل اصدقائى الذى يتبع نظـاما غذائيا

عجيبـا فى حياتـه فهو لا يتنـاول إفطـارًا ولا غداء ، وإنما يظل طـوال نهاره يشرب القهـوة ويدخن إلى أن تـأتى الساعـة التـاسعة مسـاء فيتنـاول عشـاءه وهو وجبتـه الوحيـدة كل يوم . . فأثنيت على «حـزمى» المتأخر الـذى أنقذنى من مكـابدة تلك الآلام حتى التاسعـة . . واقسمت ألا أزوره بعدهـا إلا متحصنا بـوجبتى الافطار والغداء .

ورغم كل ذلك فاذا كنت قد شبهت الصداقة الحقيقيـة بالروماتيزم فليس ذلك لأنها مؤلمة . . وإنما فقط لأنها دائمة ، ولا يهزمها دواء . . ولأنها أيضًا كآلامه تظل كـامنة تحت السطـح حتى يخيل إليك أنك نسيتهـا ثم «تنقح» عليك فجأة إذا تلقت نفحة من هواء الذكـريات لتذكرك بوجودهـا وقوتها وبأحلى أيام العمر . . وأجمل ذكرياته !

# اندهش ... يا صديقى !

حين كنت طالبا فى سنواتى الأولى بالجامعة . . . كنت عضوا فى «عصابة» ثقافية تحرص على معرفة مدلولات المصطلحات الفكرية والسياسية الشائعة فى عصرنا والتشدق بها فى احاديثها بلا هدف احيانا سوى الاعلان عن اننا نعرف معانيها! وكان من هواياتنا «الشريرة» وقتها ان نتصيد المخدوعين بمظهرنا الثقافى ونشبع غرورنا فيهم باستعراض آرائنا القيمّة امامهم فى كل الصراعات الفكرية والمذهبية المثارة فى ذلك الوقت من الخلاف العقائدى بين الصين وروسيا . . الى الخلاف «الفكرى» بين شكوكو واسماعيل ياسين ! وخلال انهماكنا فى المناقشة وطق الشعارات الضخمة كان يحدث احيانا ان نلاحظ ان بعض الضحايا الجدد لا يعرفون معانيها . . فلا نريحهم بشرحها أو بتبسيط معانيها لهم وانما نواصل الحديث ونستدرجهم للمشاركة فيه وتقليدنا فى استعمالها ثم يتوقف احدنا فجأة ليسأل احد المشاركين الجدد عن معنى احد هذه التعابير فتبدأ متعتنا الشريرة لأنه لن يعترف غالبا بأنه لا يعرف معناه بعد ان ردده فى حديثه من باب التقليد . . ويبدأ فى «التطجين» بكلام لا معنى له ونحن نتبادل النظر فى سعادة ونتلذذ بمراقبته ووجهه يحتقن بتأثير الانفعال الخفى بالكذب والموقف الحرج ، ثم نتشاور بالنظرات عن اسلوب التعذيب الفكرى الذى سنتبعه معه وهل هو الأسلوب المغولى الذى يتعمد اطالة التعذيب حتى آخر مدى ام الأسلوب الرومانى الذى يلقى بالضحايا مباشرة الى الأسود الجائعة ؟ . فاذا كان الأول فلسوف نسايره ونستمع اليه باهتمام شديد ونسرف فى اطراء معلوماته وثقافته العريضة ونتشكى من جهلنا بالقياس الى علمه الواسع . . ونبالغ فى ذلك واحشاؤنا تتمزق بالضحك المكتوم الى ان يكتشف